السريانية في معلولا وصيدنايا

بقلم : عيسى فتوح
دمشق

كانت اللغة السريانية لغة سكان سورية قبل الفتح الإسلامي الذي أدخل معه اللغة العربية ونشرها ، فتراجعت اللغة السريانية وانكمشت ، وهجرت شيئا فشيئا في المدن ثم في القرى ، إلى أن انقرضت كليا ، لكن لا تزال منها بقايا حتّى الآن في ثلاث قرى في جبال القلمون هي «بخعة» و«جبعدين» المسلمتان ، و«معلولا» المسيحية ، فقد ظل أهل هذه القرى الثلاث محتفظين باللغة السريانية إلى جانب اللغة العربية ، بسبب ارتفاع قراهم وانعزالها طوال القرون الماضية ، وبعدها عن الطرق العامة ، ونتج عن هذه العزلة صيانة اللغة السريانية ، ولا يزال الآباء يعلمونها للأبناء جيلا بعد جيل .

لقد لفتت هذه اللغة أنظار العلماء والباحثين الأوروبيين ، وخاصة المشتغلين منهم باللغات السامية ، فقاموا بزيارة معلولا التي تبعد عن دمشق خمسة وخمسين كيلو مترا ، وتحاط بالجبال الشاهقة ، ودرسوا لغتها ، وألفوا الكتب في صرفها ونحوها ومفرداتها ونصوصها ، كذلك أوفد المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1936 أحد أعضائه هو الأستاذ «رايش» فمكث فيها ستة أشهر متواصلة حتّى تعلم لغتها غير المكتوبة ، ودرس شؤونها المختلفة ، وخرج بمؤلف جمع فيه كل ما يتعلق بجغرافية معلولا ، ولغة أهلها وعاداتهم وتقاليدهم في الأفراح والأتراح .

قال الأستاذ رايش : «إن اللغة السريانية آخذة بالتراجع أمام العربية لأسباب كثيرة ، وسوف تنقرض بعد جيل أو جيلين ، كما انقرضت من قرى لبنان الشمالي (اهدن وبشرى وحصرون) ، إذ ليس في السريانية أغان تعبر عن خوالج النفس ، وأول كلمة أو أغنية يسمعها الطفل من أمه أو أبيه في معلولا هي عربية ، كما أن المدارس لا تعلم غير العربية ، والكنائس لا تقيم طقوسها إلا بالعربية أيضا ، بالإضافة إلى فقدان الكثير من كتبها ومخطوطاتها السريانية القديمة التي هي دعامة بقاء اللغات» .

وقد ذكر المؤرخ حبيب الزيات في كتابه «خزائن الكتب في دمشق وضواحيها» «أن كثيرا من المخطوطات السريانية دينية أو تاريخية أو أدبية كانت محفوظة فعلا في دير «مار لاونديوس» في معلولا ، ودير «السيدة» في صيدنايا ، فسطا عليها رجال الاكليروس الأرثوذكسي وأحرقوها في الأفران ، وأتلفوا قسما كبيرا منها ، وما نجا منها نقل فيما بعد إلى المكتبة الأسقفية في بيروت ، وكان هذا الاحراق خسارة لا تعوض» .

وقد اعتمد جرجي زيدان في الجزء الرابع من كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» على رواية الزيات المذكورة فقال : «وفي صيدنايا دير قديم العهد توالت عليه نوائب

كثيرة ، وكان فيه خزانة كتب تعرف بخزانة «دير الشاغورة» نسبة إلى دير بناه يوستنيان في القرن السادس للميلاد، وهو الآن للأرثوذكس . وقد وصف صاحب خزائن الكتب رحلته إلى ذلك الدير ، وما لاقاه من موجبات الأسف لضياع الكتب بالحريق والنهب والإهمال ، وذكر ما بقي منها ، وكلها كتب دينية ، وهكذا يقال في معلولا ، فقد كان في مكتبتها كثير من المخطوطات النفيسة في العربية والسريانية لم يبق منها إلا القليل ، وبعضها قديم جدا ...» .

ومهما يكن من أمر ، فإن أهل جبال القلمون كانوا يتكلمون السريانية أو يصلون بها حين تعلموا العربية ، فجمعوا بين اللغتين ، وبقيت منهم بقية إلى أواخر القرن الثامن عشر... ولو سلمت مخطوطات دير السيدة ورفوفها، ولم تتلفها يد الغباوة والجهل — كما يقول حبيب الزيات — لأمكننا أن نقف على كثير من نساخ السريانية في صيدنايا ، وبينهم بعض رهبان الدير ورؤسائه وأحباره . ومن يطالع كتاباتهم وتعليقاتهم التي ترى اليوم على عدة مصاحف سريانية محفوظة في الخزائن الأوروبية ، وكانت موقوفة على كنائس صيدنايا ، أو مستعملة فيها ، يجد أن كل الأساقفة الذين تتابعوا على صيدنايا حتّى أوائل القرن الثامن عشر ، كانوا يعرفون السريانية ، ويكتبون ويصلون بها .

وحين زار يوسف السمعاني دير صيدنايا في تشرين الأول سنة 1715 ، موفدا من قداسة البابا ، للبحث عن الكتب المخطوطة في الشرق ، أعطاه الرهبان بعض المخطوطات السريانية ، ومعظمها في طقسيات الكنيسة الرومية ، وكانت مطروحة — كما يقول الزيات — في احدى زوايا الهيكل طعمة للصراصير والعث !

ويؤكد الزيات في كتابه «خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا» — من هدايا مجلة (المسرة) 1932 — أن الدير كان حتّى أوائل القرن التاسع عشر حافلا بالمخطوطات والأوراق السريانية ، وبينها كل قديم ونفيس ، ومعظمها من الكتب الدينية التي كانت موقوفة على الكنائس والأديار ، وحين أراد الوكلاء أن ينفوا عن الدير نسبة السريانية ، لم يروا واسطة أعجل ، لابادتها والتخلص منها ، من ايقاد النار فيها خلال أسبوعين .

وحين مر «نيبوهر» بدمشق سنة 1762 قال : «بلغني أنه لا يزال في ولاية الباشا في الشام ، بعض الضياع التي لا يتكلم أهلها إلا السريانية» وقد أراد بذلك صيدنايا ومعلولا المتجاورتين ، ويؤكد هذا الرأي السائح الانكليزي «براون» الذي مر في معرّة صيدنايا ومعلولا فقال : «ان اللغة السريانية محفوظة هناك ، يتوارثها الأبناء عن الآباء دون دراسة ، وكنت أسمع مكارينا يتحادثون بهذه اللغة بدلا من العربية التي تشبهها كثيرا في النطق» . فإذا صح أن المعرة كانت حتّى نهاية القرن الثامن عشر تتكلم السريانية ، فكيف بالأحرى جارتها صيدنايا وهي أقدم منها عهدا ، وأعرق نسبا في الآرامية ؟» .

وممن أثبت سريانية صيدنايا العالم الألماني كارل رايتر الذي قال في معرض كلامه : «وفي هذا القسم وحده من سورية حفظت اللغة السريانية لهجة بلدية في بعض القرى الجبلية ، ومنها صيدنايا» .

* * *

على الرغم من قرب المسافة بين صيدنايا ومعلولا ، فقد انقرضت اللغة السريانية كليا في صيدنايا وولت إلى غير رجعة ، في حين أنها لا تزال مستعملة ومتداولة في معلولا ، تلك القرية الوادعة التي تتشبث بالصخر كعش النسر ، وتتدرج بيوتها الصغيرة كالسلّم ، وبعضها مغاور حفرت في الصخر منذ أقدم العصور ، وكثيرا ما يقصدها الرسامون ليرسموا لوحات من مشاهدها الغريبة العجيبة ، ولاسيما «الفج» العميق . والفج — كما تقول التقاليد — لم يكن هكذا منذ الأزل ، ممرا ضيقا يفصل بين جبلين ، ولكن القديسة «تقلا» تلميذة بولس الرسول ، كانت تهرب ذات يوم من أبيها الوثني ، ومن الجنود الذين أرسلهم لقتلها ، فوصلت إلى معلولا ، ولما رأت الجبل الشاهق يقف أمامها ، ويسد عليها طريق النجاة ، رفعت يديها إلى السماء وصلت بحرارة ، فانشق الصخر الجبار ، ومرت من الشق — الفج — بسلام ، لذلك ابتنت ديرا لها

في تلك البقعة الفاتنة،يعتبر بحق أقدم دير في العالم . وتضم احدى حجرات الدير رفات هذه القديسة . بينما ترشح نقاط ماء بطيئة من السقف الصخري قريبا من القبر . ويعتقد الكثيرون أنه ماء عجائبي . يشفي أصعب أنواع العلل . وأعقد الأمراض ، كما يعتقد المعلوليون أن القديسة تقلا – شفيعة قريتهم – ترد الأذى عنهم ببركتها الدائمة .

وفي أعالي القرية دير «مار سركيس» الذي يرتفع حوالي 1800 متر ، ويطل على معلولا كالطود الشامخ . وترجع قبته إلى العهد البيزنطي ، بالاضافة إلى كنيسة القديس «لاونديوس» التي بنيت في القرن الخامس ، ومعابد القديسين سابا وتوما وجاورجيوس ، وقد اندثر أكثرها ، وهناك خرائب أخرى كانت قديما كنائس معروفة بأسماء القديسة بربارة ، والقديس نيقولاوس ، والقديس شربين وكنيسة التوبة ، ومغاور أثرية كثيرة نقش على جدرانها كتابات يونانية ترجع إلى القرن الأول الميلادي . وفي أسفل القرية معبد روماني يسمى «حمام الملكة» يقال أن الوثنيين كانوا يجتمعون فيه لممارسة أعمالهم المنكرة ، ولما دعاهم أحد القديسين إلى التوبة والاقلاع عن هذه الأعمال رفضوا فأهلكهم الله جزاء ما كانوا يفعلون ، ثم أقام المسيحيون كنيسة في المكان نفسه . كل هذه الآثار شواهد ناطقة بما كانت عليه معلولا في الزمن القديم من الأهمية والاتساع .

* * *

أما صيدنايا فهي كلمة سريانية معناها «سيدتنا» أو صيد دنايا ، ومعناها في السريانية أيضا «أرض أو أماكن للصيد»، وقد بنيت عام 198 بعد الميلاد، وأشهر ما فيها ديرها العظيم الذي بني حوالي 547 للميلاد، على عهد الامبراطور البيزنطي يوستنيان في قصة مشهورة، وهو اليوم مؤسسة رهبانية أرثوذكسية ، يضم خمسين راهبة ترعاهن رئيسة هي حاليا الأم «كاترين أبو حيدر» ، ويؤمه كل عام آلاف الزوار من مختلف أنحاء العالم ، ولاسيما في الثامن من أيلول عيد مولد السيدة العذراء .

أقيم الدير فوق رابية عالية تشرف على قرية صيدنايا التي تعلو حوالي 1400 متر ، وفيه مكتبة قيمة تضم مئات الكتب المخطوطة الثمينة ، وعدد كبير جدا من الايقونات التي رسمت في القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد ، لكن أهمها على الاطلاق ايقونة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا الانجيلي البشير في القرن الأول للميلاد ، ونقلت إلى الدير بعد زمن طويل من بنائه في قصة مشهورة ، ويطلق عليها اسم «الشاغورة» أو «الشاهورة» ومعناها في السريانية المعروفة أو الذائعة الصيت .

توضع ايقونة الشاغورة الآن في غرفة مظلمة صغيرة تضاء بالشموع والزيت ، ويتدلى من سقفها مصابيح عديدة مملوءة بالزيت ، وفي جدارها الشرقي كوة ذات شبك من الفضة ، علقت فوقه قطع وسلاسل ذهبية وفضية وصلبان مختلفة الأشكال من تقديم الزوار ، ووراء الشبك المسدود ايقونة العذراء «الشاغورة» ويزعمون أنه يرشح منها زيت يشفي جميع المرضى الذين يقصدونها طالبين العون .

يحتل دير سيدة صيدنايا المركز الثاني في الأهمية بعد القدس من حيث كثرة الزوار للأماكن الدينية في الشرق ، وتزداد شهرته اتساعا بما تجترحه العذراء من عجائب نحو من يزورونه من جميع الطوائف والأديان للتبرك وطلب العون وتقديم النذور في جو عابق بالايمان والطهر والقداسة وروائح البخور المنعشة ، وكان هذا الدير ملجأ أهل صيدنايا وضواحيها أيام الكوارث والفتن ، لوعورة مكانه ، وصعوبة المرتقى إليه ، والدخول من بابه الصغير ، حتى لكأنه احدى القلاع المحصنة ، وقد لجأ إليه المسيحيون في الفتنة الطائفية التي حدثت في دمشق سنة 1860 ، وأثناء الثورة السورية الكبرى عام 1925 .

ومن الآثار الباقية في صيدنايا ، كنيسة القديسين بطرس وبولس التي يعود بناؤها إلى عهد الرومان ، وهي كالبرج المربع معقودة بحجارة ضخمة جيدة النحت والبناء ، يدخل إليها من باب صغير ، ويصعد إلى سطحها بدرج دائري كاللولب ، وكنيسة «آجيا صوفيا» ، و«مقام مار الياس» ودير القديس «خريستوفوروس» ودير «مار توما» ودير «مار شربين» وغيرها من الكنائس والأديرة الموجودة في صيدنايا والقمم المحيطة بها .

مصادر بحث السريانية في معلولا وصيدنايا

1) الريف السوري (محافظة دمشق)ـ الجزء الأول لأحمد وصفي زكريا ـ مطبعة دار البيان ـ دمشق 1955 .

2) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا ـ لحبيب الزيات ـ المطبعة البولسية ـ حريصا (لبنان) 1932 .

3) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها لحبيب الزيات ـ مطبعة المعارف ـ القاهرة ؟

4) تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الرابع) لجرجي زيدان ـ دار الهلال ـ القاهرة 1957 .

5) بعض النشرات السياحية الصادرة عن وزارة السياحة في سورية .

*